مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 631-644

الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية ورمز المقاومة الشعبية -أديباً وشاعراً-

Emir Abdelkader, founder of the Algerian state and symbol of popular resistance -Writer and poet-

هجيرة نقاز*

جامعة أبو بكر بلقايد -تلمسان- الجزائر

البريد الالكتروني: hadjirare@gmail.com

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
24/02/2022	04/04/2022	2022/04/16

الملخص: إنّ الحديث عن شخصية الأمير عبد القادر هو حديث عن شخصية متميزة جمعت بين مطالب التصوف والدين ومطالب السياسة والحرب في إطار الخصائص الذاتية المرتبطة بانتمائه الحضاري لقد امتاز الأمير عبد القادر بخبرة سياسية ومقدرة فكرية وثقافية فاقت تصور العدو الغاشم وتجلت في سيرته النضالية التي تناولها الكُتَّاب والمفكرين في أفريقيا والشرق، وبخاصة الأقلام الجزائرية ليمضوا في دراسة حياة هذا البطل العظيم، الذي يكفيه فخراً أن يكون الداعية الأوّل لتوحيد الصفوف الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: *الأمير عبد القادر، التصوف، الشعر، الأدب، المقاومة الشعبية*

Abstract: Talking about the personality of Prince Abdul Qadir is a talk about a distinguished personality who combined the demands of Sufism and religion and the demands of politics and war within the framework of the personal characteristics associated with his civilizational affiliation.

Prince Abdul Qadir was distinguished by political experience and intellectual and cultural ability that exceeded the perception of the brutal enemy and was evident in his struggle biography that writers and thinkers in Africa and the East dealt with, especially Algerian pens, to study the life of this great hero, who is proud to be the first preacher To unify the Islamic ranks.

Key words*: Prince Abdul Qadir, Sufism, poetry, literature, popular resistance*

* **المؤلف المرسل**

مقدمة:

للعظمة نَوَاحٍ كثيرة ومظاهر متعددة تَخلب الناظر وتستولي على ذهن الفكر، والناحية البارزة هي التي تستأثر بالاهتمام وتمتلك الانتباه، وهكذا فأنت إذا رأيت رجلاً عظيماً في البطولة نسيت أنّ هذا الرجل يُجيد الأدب والخطابة وإذا أنت قرأت لشاعر عظيم غاب عنك أنّ هذا الرجل شجاع ومحارب لأنّ ناحية العظمة بارزة كائنة في شعره، وكادت هذه القاعدة أن تطبق على شاعرنا فقد افتتن الناس بشجاعته وبطولته في الجهاد حتى كادوا ينسون أنّ هذا البطل صاحب قلم وصولجان وأنّه رب سيف وكلمة أعطى لكل جانب حقه.

شبّ الأمير في وسط اجتماعي رخي كان قد استجمع خصال السؤدد على نحو متكامل؛ حيث حاز إلى جانب المؤهلات الاجتماعية القدرات الذهنية والقريحية، وهو ما جعله يغدو إلى جانب رجل السياسة والدين اللذين كان عليهما، شاعراً وكاتباً في ذات الوقت، الأمر الذي هيأه لأن يُنجز على الصعيدين السياسي والفكري تجربة حياتية فذة توسمت لنا منعطفاتها في آثاره وكتاباته.

1. مولد الأمير عبد القادر ونشأته:

الأمير عبد القادر، ناصر الدين، هو ابن الأمير محيي الدين الحسيني، يتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (بوعزيز، 1983). يعود أصل الأمير وأسرته للأدارسة الذين كانوا ملوكاً في المغرب الأقصى والأوسط والأندلس، ويعتبر السيد عبد القوي الأوّل، أوّل أجداد الأمير الذين نزحوا عن المغرب الأقصى، واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف من أعمال الجزائر، وذلك بعد أن اشتدّت واضطربت الأحوال في مراكش (السبع، 2000). ولد الأمير عبد القادر يوم الجمعة 23 رجب سنة 1222هـ/ 6 سبتمبر 1807م ببلدة القيطنة من أعمال (معسكر) بالمغرب الأوسط في بيت علم وتقوى،

وتربى في رعاية والده وحفظ القرآن الكريم في مدرسته، وقرأ عليه الفقه وغيره، وأخذ العلم على أهله (أباضة، 1994).

لقد اشتهرت سلالة الأمير وعائلته بالعلم والتقوى والجهاد، فكانوا بذلك موضع تقدير واحترام من طرف الجميع، يُرجع إليهم في كل صغيرة وكبيرة وبالتالي استطاعت أسرة الأمير أن تُسلط نفوذها على القبائل النازلة في نواحي الغرب الجزائري المتاخمة للمغرب، وخاصة في عهد السيد محيي الدين والد الأمير عبد القادر الذي اِشتُهر بالعلم والفضل وشُدّت إليه الرحال من الضواحي والأمصار لتلقي العلوم والأذكار، وقد جبل الله النفوس على محبته والقلوب على مودته، وكان يُلقب بالشريف لانتسابه إلى سلالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (السبع، 2000، صفحة 11).

نشأ الأمير وتربى في محيط ديني علمي ثقافي، وكان موضع اهتمام وعناية كبيرة من طرف والده الذي مال إليه ميلاً خاصاً، فأحاطه برأفته وحنانه المميزين لكأنّه كان يتوسم فيه المجد، ويحس أنّه سيكون لهذا الفتى شأناً عظيماً، فحاول أن يُنشئه نشأة تؤهله لتحمل مسؤلية قيادة الأسرة بعد وفاته، فكان لا يسمح لأحد غيره أن يقوم بالعناية به، فقد كان هناك على ما يبدو سرّ غامض وعاطفة غير محددة، يدفعان الأب إلى أن يخصص اهتماماً غير عادي للطفل الذي سيكون مستقبله محفوفاً بهالة مجيدة ومرتبطاً بمستقبل بلاده (السبع، 2000، صفحة 13). استطاع الأمير عبد القادر منذ طفولته شدّ انتباه من هم حوله بدهائه وسرعة بديهته فكانت التربية التي أنشأه عليها والده سبباً رئيسياً في صُنع هذا القائد الشبل، فقد نهل من معين العلم والمعرفة وصاد لنفسه مواطن المقدرة وقوة الساعد وصدق المنحى فكان بحق أميراً يُهتدى بهديه، فكونه ابن عائلة شريفة عظيمة الشأن، كريمة المنشأ وطيبة الأرومة، "ولكونه من جهة أخرى ابن والد اجتمعت فيه خصال البطولة وشرف التدين، والسطوة الروحية، إذ كان شيخ الطريقة الشاذلية، منه يستوثق كل الناس في تلك الجهات مبادئها" (بوعزيز، 1983، صفحة 77)؛ التحق عبد القادر بمدرسة

والده بالقيطنة وهو في الرابعة من عمره، فكانت ملكاته العقلية على نبوغ غير عادي فقد كان يقرأ ويكتب عندما كان في الخامسة من عمره، وما آنس الشيخ هذا الاستعداد الكبير وما تحلى به عبد القادر من أمارات الذكاء والفطنة بذل والده خالص جهده من تثقيف ولده وإتاحة الفرص أمامه ليرتع في مناهل الثقافة والأدب. وما إن بلغ عبد القادر الثانية عشرة من (السبع، 2000، صفحة 08) عمره، حتى أصبح في عداد حفظة القرآن الكريم، متمكناً من الحديث وأصول الشريعة، وبعدها بسنتين أصبح في مقدور الشاب عبد القادر أن يُلقي دروساً في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية. سافر إلى وهران وحصّل منها، وأكمل دراسته وبرع في مختلف العلوم حتى فاق أقرانه بالأدب والتوحيد والفقه والحكمة العقلية. وكان يحفظ أكثر صحيح البخاري، كما كان له ولع بالفروسية والسلاح لا يهملهما، فصار عالماً فاضلاً وفارساً مدرباً وجمع بين السيف والقلم (السبع، 2000، صفحة 10). وفي السابعة عشر من عمره بدأت ملكة الشعر تظهر لدى عبد القادر للعيان حيث بدأ يقرض الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره، على الرغم من أنّه لم يسبق له أن تعلم موازين الشعر ومقاييسه ولا سبق له أن تلقى أصوله ومبادئه على أستاذ خبير في فن الشعر وأصوله، فجمع بذلك بين رتبتي السيف والقلم مما زاد أباه إعجاباً وفخراً به، فكان لا يُقدم على عمل دون استشارته ولا يحضر مناسبة اجتماعية أو سياسية إلاّ برفقته (السبع، 2000، صفحة 15).

لقد كان بحق شاباً فتياً يحمل سمات البطل الشجاع "فاستمد من والده أصول السياسة، وتعلم من العدو الخبرة الحربية، بفضل تلك الحروب الطاحنة التي خاضها معه، فقد أمكن له أن يصبح شخصية كبيرة له مقامه ومكانته في تاريخ الثورات التحريرية" (بوعزيز، 1983، صفحة 78)، فلا غرابة أن يرى وهو أمير بعد ذلك يقوم بتلك الأدوار المدهشة التي أثارت استغراب وحيرة أعدائه.

إنّ شجاعة الأمير عبد القادر قوة روحية معنوية، أورثته حب التضحية في سبيل الشعب والوطن ومن أجل العزّ والشرف والحرية والاستقلال، "فبفضل دهائه العظيم تمكن من صدّ المعتدين والوقوف دون احتلالهم للبلاد قرابة السبعة عشر عاماً" (بوعزيز، 1983، صفحة 79).

لم يحارب الأمير عبد القادر بالسيف والبندقية زمناً متغاضياً عن مشارب فنون الأدب واللغة، بل وكان نِعم الأديب الأريب الذي ينازل بسيف لسانه الحاد، مفتخراً تارةً وناشراً الحماسة والاعتداد بين صفوف محاربيه، متغزلا ومتصوفاً ومادحاً صنيع تابعيه. "على أنّ هناك مزية أخرى تفرد بها الأمير في عالم الشعر، هي أنّه كان أوّل شاعر في المغرب العربي عامة، وفي الجزائر بالخصوص. تعاطى شعر الحماسة، وطرق باب القريض الملحمي ليفتحه على مصراعيه لمن يأتي بعده من فحول الشعراء ورواد الحماسة والملاحم" (بوعزيز، 1983، صفحة 147). لم تكن شجاعته فقط من يصنع الحدث بل أيضا ثباته على الحق ولطف تدبيره وورعه الذي عُرف به، وها هو يواسي رفاق الدرب وأتباعه ممن رفع راية الشرف، فبعد أن هجم العدو على عاصمته الثانية بالزمالة فنهبها وقتل أغلب أهاليها وأسر منهم ما لا تعده العدة وقف مواسيا لأصحابه مُهونا مصابهم بقوله: "سبحان الله، كل شيء كنا نحبه وتعلقت أفكارنا به كان يعوق حركاتنا ويقف صدورنا عن الوصول إلى مطلوبنا، والآن صرنا أحراراً متجردين لا شغل لنا إلاّ مقارعة الأعداء ومصارعتهم" (بوعزيز، 1983، صفحة 79). وإذا ما علمنا بأنّ الشاعر العربي هو لسان حال القوم ومؤدبهم الأوّل، فهو بحق حامي حمى الجماعة وسيفها الذي يُناضل نصرة لدينه وأصله "إذا ما علمنا كل هذا سهل علينا أن ندرك الغرض الذي دعا الأمير إلى تعاطي مثل هذا النوع من الشعر الحماسي في حروبه التحريرية وأن نعرف سلفاً بأنّه جزء لا يتجزأ من كفاحه الشريف، ونضاله المُستميت، وجهاده المقدس، بالحديد والنار" (بوعزيز، 1983، صفحة 148).

لقد توفي الأمير بدمشق في منتصف ليلة 19 رجب 1300هـ/24 ماي 1883م. عن عمر يناهز 76 عاماً، وقد دُفن بجوار الشيخ محيي الدين بن عربي بالصالحية ثم نُقلت رفاته إلى الجزائر في 1388هـ/1968م (الجزائري، 2004)، وفي غيابه أورثنا مجموعة من المؤلفات التي تعد مصادر في الأدب والفقه نذكر منها (الجزائري، 2004، صفحة 23/1): إجابات الأمير عبد القادر (وهي أسئلة من بعض علماء عصره عن إشكالات بعض عبارات الصوفية كقول الغزالي مثلاً: ليس في الإمكان أبدع مما كان)، رسالة في الحقائق الغيبية، رسالة في شرح سورة التكوير، تعليقات على حاشية جدّه عبد القادر (في علم الكلام)، الصافنات الجياد (في محاسن الخيل وصفاتها)، قصيدتان على لسان أهل الله، وأيضاً (بوعزيز، 1983، صفحة 132): المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد، ذكرى العاقل في تنبيه الغافل، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، رسائل أخرى وإجابات عن أسئلة متعددة في مختلف الأغراض وشتى الفنون وعديد المشاكل العلمية وغيرها.

2. الأمير عبد القادر العالم المتصوف:

استطاع الأمير عبد القادر أن يكون شاعراً بقدر ما أتاح له تكوينه الثقافي ومحيطه الفكري، وأن يكون شاعراً بطلاً فوق ما تهيئه له الظروف ويحتمله العصر "فاجتهد في أن يكون يطعم هذا بذلك ويوفر التطابق بين الوجهين والتجارب بين الموقفين موقف البطل المجسم والشاعر المعبر" (السبع، 2000، صفحة 68). لعل من أسباب تفجر موهبته الشعرية هو ذلك الحدث السياسي الذي تعرضت له البلاد وهو سطوة المستعمر الغاشم على البلاد، فحدث طواعيتا أن يختار الأمير عبد القادر الجهاد والبلاد إلى جانب استلهامه فنون الأدب والشعر من طبيعة الجزائر الخلابة في أوصافه.

لا غرابة أن ينشأ عبد القادر وقد امتلك القدرة على إدارة القول بلونيه المنظوم والمنثور، وما ذلك إلاّ لتجاوبه مع معطيات المعرفة التي استفاد منها في بيئته بمستوياتها

الإكتسابية والتعليمية المعتمدة على ما تعطيه الزاوية من علم وما تبثّه المجالس والحلقات من تثقيف، إضافة إلى ما كان يجد في نفسه من جنوح للقول الفني -خطابة وشعراً- كل ذلك أغنى تجربة الفتى وجعله يتمرس بمفاعلة الخطاب الجميل ويتريض على حسن الأداء التعبيري ويتساجل مع اللغة وأساليب الأداء في مختلف صوره وأغراضه تكريساً للمكنة وتقوية للقريحة (سليمان، 2004). لقد ارتكز شعره على نقطتين أساسيتين هما: طبيعة الفروسية وثقافته الإسلامية ولعل هذه الدوافع أو الدافعين مما جعل لشعر عبد القادر مذاقاً عاماً واحداً كالشعر الصوفي أو العذري أو الرومانسي فهو يتغزل ويفتخر ويمدح ويصف في أثناء قصده الحديث عن فتوحاته الميدانية أو تلك التي يسميها العرفانية أو عن آماله المنشودة في هذه أو تلك. ويعدّ الأمير عبد القادر من حاملي لواء الأخلاق الرفيعة ومن حراس المعتقدات والأعراف الموروثة؛ فكل ذلك أدى إلى ظهور الجوانب الروحية والخلقية لا في حياته اليومية فحسب بل انعكس ذلك على شعره وأدبه بصفة عامة، إضافة إلى هذا فإنّ النزعة الصوفية عند عبد القادر كان لها أثر هام في توجيه فن الغزل عنده، ولا يخفى أنّ الحب والغزل الإلهيان عنصران أساسيان من عناصر الشعر الصوفي في الإسلام (السبع، 2000، صفحة 97).

يرى الأمير عبد القادر أن التصوف هو "جهاد النفس في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية لا لشيء آخر من غير سبيل الله" (مراد، 1990). وتتفق مواقفه التاريخية وجهاده ضد العدو مع تعريفه للتصوف فالصوفية في نظره هم هؤلاء الذين عليهم "أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم حاضرين مع الله تعالى" (مراد، 1990، صفحة 51). فالتصوف في نظره إخلاص العبادة لله تعالى، ومراقبته في السرّ والعلانية ومن هنا يعتبر الصوفية هم سادات طوائف المسلمين. والتوجه إلى الله تعالى بمنهج التصوف، في نظر الأمير وعامة الصوفية هو التوجه إليه بعد التحقق بمرتبتي الإسلام والإيمان وعبادة الله بمرتبة الإحسان.

إنّ لنسبه النبوي الشريف وانتمائه إلى الدوحة المباركة، الأثر الكبير أيضاً في توجيهه الصوفي وسلوكه هذا السبيل، ويتجلى لنا موقفه من أهل البيت في شرحه للآية الكريمة: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" سورة الأحزاب، الآية:32، فيقول:"تأمل هذه العناية الكبرى والنقبة العظمى والمنزلة الزلفى لأهل البيت النبوي، ولفظة أهل البيت تعمهم من أولهم إلى آخر مولود منهم، حصر تعالى إرادته لإذهاب الرجس عنهم -والرجس هو الذنب- تطهيراً كاملاً مؤكداً بالمصدر، وذلك بأن يكون كل ما يصدر منهم من المعاصي والمخالفات مغفورة لهم، بل المغفرة متقدمة لا بأنهم معصومون من المخالفات كلا وحاشا، بل معنى أنّ ذنوبهم تقع مغفرة لهم عناية إلهية" (الجزائري، 2004، صفحة 267). وهذه إشارة مميزة تطرّق لها بعض الدارسين الموفقين وإن كان الإطلاع على كتاب المواقف يغنينا عن السؤال عن معين هذا الأمير لا بل يخبرنا ويوضح لنا جلياً مكانة الأمير عبد القادر بين علماء التصوف وعلوم الدين.

توغل الأمير في آخر عمره بالتصوف وعلوم القوم وأظهر من الرقائق والمعارف ما أشار إلى سموّ مقامه ورفيع قدره، فرحلته الأولى التي سافر فيها رفقة والده إلى بلاد الحج تعد خطوة عظيمة في تزكية نفسه والاطلاع على شؤون القوم ومشاربهم فقد التقى جلّة من العلماء والصوفيين الذين سار على منوالهم، فتلقى الطريقة النقشبندية عن الشيخ خالد النقشبندي وآخذ الطريقة القادرية ببغداد عن الشيخ محمود الكيلاني القادري، وبعد عودته إلى الجزائر، قام بإنشاء المراكز في القرى وبين القبائل لنشر الطريقة القادرية، وكان هؤلاء هم الذين غذّوا حركة الجهاد التي قام بها الأمير بعد ذلك (الجزائري، 2004، صفحة 22). ثم حالة العزل والسجن التي تعرض لها كانت سبباً في زهده عن الدنيا وملذاتها، فصار يُحبذ العزلة والخلوة مع ربه، ثم إقامته بدمشق؛ أهلته لإلقاء الدروس وحضور مجالس الذكر والمناظرات ومساجلات العلماء، وتأليف الكتب في شتى المعارف والتي تعبر عن فيض قناعته وإيمانه بالله ورسوله.

3. عبقرية الأمير عبد القادر القيادية وموقف بعض المتأخرين من فلسفته النضالية:

إنّ عبقرية الأمير عبد القادر القوية النشيطة قد نجحت في منح الالتحام والوحدة لعناصر كانت على جانب كبير من التخاصم والاختلاف فقد خضعت لصولجانه العظيم عشرات القبائل وظهرت في كل مكان النتائج الطيبة للنظام والحكومة الصالحة، "إنّ نشاطه العجيب وحيويته وتفكيره الخلاق قد جعلته يتغلب على صعوبات كان يبدو المستحيل التغلب عليها" (تشرشل، 1971).

إنّ عبد القادر المحارب والخطيب والدبلوماسي ورجل الدولة والمشرع تكمن أسرار قوته في عظمته العقلية. فرسائله وخطبه وأحاديثه كلها تحمل طابعها الخاص في الجدّة والأصالة. والحق أنّ بيانه الطبيعي الذي أغنته الدراسة أنضجه التفكير وارتقت به مهابته الفذّة كان له وقع السحر (تشرشل، 1971، صفحة 149). ليُعطي المثال والقدوة للجند في التضحية والفداء، فهو موقد نار الحرب وملهب أتونها، تراه يتقدم جيشه مع بداية النزال، وآخرهم عند نهايتها همُّه ضرب الرقاب وجزّ الرؤوس، لا تلهيه عن ذلك مغانم العدو وأسلابه، هدفه الوحيد إذكاء روح جنده حماسة ونخوة، يدافع عنهم دفاع الوالد عن فلدات أكباده، يحميهم ويدفع الأذى عنهم وُضحي من أجلهم فتراهم عند نهاية المعركة يعودون إلى قائدهم وبطلهم بآيات الشكر والإمتنان، لما بذله من شجاعة وبطولة وحماية لهم (السبع، 2000، صفحة 77). لقد خاض الأمير عبد القادر حرباً ضد المستعمر تُعد من أكثر الحروب التاريخية رسوخاً، يقول عنه اسكندر بالمار Iskandar Palmar: "إنّ من العجب رجوع قوة الأمير عبد القادر إلى حالها الأولى بعد أن اعتراها الاضمحلال والتلاشي ثلاث مرات: الأولى بعد استلاء الجنود الفرنسيين على عاصمته معسكر، والثانية بعد غزوة تلمسان، والثالثة بعد واقعة سكاك، وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لأن تكون سبباً قوياً لسقوط أعظم سلطان راسخ القدم ومع ذلك فإنها لم تؤثر في أمره، ولم تحصل الأمة الفرنسية منه على طائل فلهذا أقول: لله ذرّ هذا الرجل العظيم

الذي كانت سياسته العجيبة وتصرفاته الغريبة لا يفارقان ذاته طرفة عين. ومن هنا تعلم أنّه كان في أقرب وقت يسترجع ما فقده من قوته" (بوعزيز، 1983، صفحة 80)، إن حربه الضروس أعطت دروساً ستبقى ثابتةً في تاريخ البشرية، ويقول عنه المؤرخ شارل هنري تشرشل Charles Henri CHurchil: "إنّ الكلمات التي كتبها بروغام Progame عن واشنطن قد تنطبق بحق على عبد القادر في هذا المنعرج العظيم من حياته: (محارب منتصر حيث أعظم المحاربين ييأسون، وحاكم ناجح أمام صعاب في طريق لم يجربه أحد من قبل. ولكنه المحارب الذي لم يصلت سيفه من غمده إلاّ عندما دعا القانون الأول لبلادنا إلى إصلاته، والحاكم الذي رغب بأدب وبلا مباهاة.. وذلك هو ما يتطلبه واجبه المقدس نحو بلاده ونحو الله)" (تشرشل، 1971، صفحة 157). الأمير عبد القادر الفارس المغوار والشاعر المجيد يسلط سيفه على العدو خبيرا بالحرب وأديبا مرابطا فهو نعم العالم العابد الذي يخوض الحروب ويروي الحديث والفقه والنحو فالعلم والعمل به توأم الاعتقاد والسلوك ومواجهة حاجة المجتمع بالتلبية، فلا فرق بين أن تعمل العلم للسلم أو تعمله للحرب. يقول عنه شكيب أرسلان: "وكان المرحوم عبد القادر متضلعاً من العلم والأدب، سامي الفكرة، راسخ القدم في التصوف لا يكتفي به نظراً حتى يمارسه عملاً" (بوعزيز، 1983، صفحة 133).

يُذكي الأمير عبد القادر روح النظام والثورة في نفوس جنده تارة بالسيف وأخرى بأدبه وشعره فخراً ومدحاً، ومن أشهر ما قاله الأمير من الشعر القادري؛ قادري لأنّه أرق ما يُعثر عليه فيما يرسله القادة العسكريون إلى أحبتهم الجنود المجاهدين يتشوق إليهم ويمدحهم بقصيدة إخوانية تنهض فيها (كم) الخبرية ثلاثاً وثلاثين مرّة: [الكامل] (القادر، 2007)

يا أيها الريح الجنوب تحملي من تحية مغرم وتحملي
وأقري السلام أُهيل ودي وانثري من طيب ما حُمّلت ريح قرنفل

خلي خيام بني الكرام وخبّري أني أبيت بحرقة وتبلبل

يستهل عبد القادر لاميته بدعوة الريح -ريح الجنوب- لتنوب عنه في حمل تحياته وأشواقه إلى هؤلاء الفرسان، الذين اكتوى الشاعر بنار البعد عنهم فقد جفاه النوم، يبيت ليله سهراناً عسى أن يظفر بطيف منهم، فكل عذاب في الدنيا يهون، إلاّ هجر الأحباب والإخوة.

يعد الأمير عبد القادر من أكبر دعاة الإصلاح في البلاد العربية، داعياً الأمة الإسلامية إلى التآلف ويظهر ميله هذا في الرسائل المتبادلة بينه وبين خير الدين باشا التونسي صاحب كتاب "أقوم المسالك" فقد أهدى خير الدين كتابه إلى الأمير عبد القادر، فقرأه وأُعجب بمحتواه وآراء صاحبه ثم وجّه خطاب شكر وإعجاب إلى خير الدين، والعبارات التي وردت في هذا الخطاب تصور رأي الأمير من مفهوم الإصلاح الذي دعا إليه خير الدين، فبعد أن عبّر عن شكره لدفاعه عن الشريعة الإسلامية وصلاحيتها للحكم لكل زمان ومكان، قال: "وقد اطلعنا على (أقوم المسالك) فرأينا فيه ما بهر العقول، وأدى الأفكار إلى الذهول من قضايا، فاتفقت القلوب على تفضيله واختلفت الألسنة في تمثيله، أما نحن فقد تركنا التشبيه وقلنا ما له في فنه مثيل ولا شبيه، كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الأسحار..." (الصلابي، 2015) فقد أشاد الأمير عبد القادر بصنيع هذا الكتاب واعتبره غرّة التأليف في قضايا الإصلاح الإسلامي وما تضمنه من أخبار الملوك وأفاضل الزمان.

وأقام الأمير عبد القادر الندوات العلمية والفقهية والدراسات الدينية في الجامع الأموي وساعد في رفع الظلم عن كثير من المضطهدين، وخصص رواتب سخية في كل شهر للعلماء والصالحين والمحتاجين وتفرّغ للعبادة والتأليف وخدمة الناس وألف كتاب "المقرض الحاد" لما كان في سجنه وراجعه في دمشق ونظم ديواناً من شعره الرقيق سماه "نزهة الخاطر" ومجموعة من الكتب (الصلابي، 2015، الصفحات 281-282). واهتم

العلماء بالكتب التي خلّفها وتقريضها ومناقشاتها من قبل رجال الفكر، وأدرجت جمعية العلماء في باريس اسمه من بين العلماء والعظماء في "ديوان الأمم" (الصلابي، 2015، صفحة 282).

شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عليش وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عليش، والعلامة عبد الرزاق البيطار والعلامة جمال الدين القاسمي، ومفتي الحنابلة الشيخ محمد جميل الشطي، وآخرون كثر شهدوا للأمير بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام وأشادوا بحرصه على إقامة أحكام الشريعة وحدودها وسعيه الحثيث لنشر علوم الدين (الصلابي، 2015، صفحة 307)، لقد كُتب لهذا القائد الشجاع والشاعر المجيد الخلود عبر الأزمان بما خلّفه من علوم وأشعار ما زالت تذوذ عن حوادث حياته الماضية وفضله الجزيل على أبناء وطنه ومن صاحبه أو تعلم على يديه.

الخاتمة:

يتبين لنا المكانة العلمية للأمير عبد القادر وشخصيته المميزة التي استطاعت أن تصنع تاريخاً مجيداً للوطن والأهل والبلاد من خلال آثاره الأدبية التي خلفها ومراسلاته ومناظراته والمجالس التي كان يعقدها مع العلماء وأشراف الأمة وتتضح خلفيته الإصلاحية وروحه السامية فهو صاحب نجدة وفروسية لا يبخل بالعطاء الفكري والروحي قبل العطاء المادي. إنّ الأمير عبد القادر -وعلى الرغم مما أُخذ عليه- استطاع أن يجسد آمال شعبه في شعره من بطولة وإقدام، وسخر شعره للدعوة لقضية بلاده وهو بعيد عنها، كما استطاع أن يلج كل الفنون الشعرية المعروفة في عهده، فافتخر ومدح ووصف وتغزل، وأولى مذهبه الصوفي جانباً هاماً من أشعاره.

إنّ حياة الأمير عبد القادر قد لابس فيها الفعل بالقول وتلازم الواقع والفكر وظلا يتقاطعان في تجسيد المواقف وصنع الحدث، فتبلور لنا هذا التراث الفكري والأدبي الذي

تركه، وضمّنه خريطة معرفية ووجدانية تظهر عليها بوضوح أهم تضاريس تجربة العمر والمنعطفات التي قطعها في حياته بمختلف أشواطها. فقد عُرف الأمير بأنّه رجل علم ورأي، وصاحب فكر ومنهج، كما عُرف بأنّه رجل حرب وحكم وسياسة ومن هذه النافذة الثقافية توافد إليه العلماء وطلاب المعرفة في منفاه بفرنسا ثم إلى دمشق وكثرت محاوراته ومراسلاته والتلقي عنه.

إنّ المراحل الحياتية التي عاشها عبد القادر الجزائري تدرجت في صقل مواهبه وبناء شخصته الثقافية والأدبية قبل أن يعيش تجربة الاعتراك الجهادي، وتلك المهمة التثقيفية لم تنطفئ منذ نعومة أظافره فلبى نداء الرغبة الإبداعية واستمرت إلى آخر العمر، على عكس ما اقتضاه منه العراك الجهادي.

قائمة المصادر والمراجع:

الأمير عبد القادر. (2007). *ديوان الشاعر الأمير عبد القادر*. الجزائر: منشورات ثالة.

الأمير عبد القادر محيي الدين الجزائري. (2004). *المواقف الروحية والفيوضات السبوحية*. بيروت، لبنان: محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية.

بركات محمد مراد. (1990). *الأمير عبد القادر الجزائري -المجاهد الصوفي-*. باتنة، الجزائر: دار النشر الإلكتروني.

شارل هنري تشرشل. (1971). *حياة الأمير عبد القادر*. ترجمة:أبو القاسم سعد الله. تونس: الدار التونسية للنشر.

عبد الرزاق بن السبع. (2000). *الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه*. المملكة العربية السعودية: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

عشراتي سليمان. (2004). *الأمير عبد القادر المفكر -مساجلات في قضايا اللغة والمعرفة وفقه الخطاب القرآني*. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.

علي بن محمد الصلابي، ، د.ط، (1994). *سيرة الأمير عبد القادر -قائد رباني ومجاهد إسلامي-*. بيروت، لبنان: دار المعرفة.

علي محمد محمد الصلابي. (2015). *سيرة الأمير عبد القادر -قائد رباني ومجاهد إسلامي-*. بيروت، لبنان: دار المعرفة.

نزار أباضة. (1994). *الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد*. بيروت،دمشق: دار الفكر المعاصر ودار الفكر.

يحيى بوعزيز. (1983). *الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري*. تونس: الدار العربية للكتاب.